العلاقات السياسية والعسكرية بين أوروبا والدولة العثمانية في عصر السلاطين العظام

إعداد

هاني حامد محمود سيف الدين مدكور

أ.د إبراهيم علي عبد العال

أستاذ التاريخ المعاصر كلية الأداب – جامعة طنطا

د. إبراهيم فؤاد عبد العزيز

مدرس التاريخ الحديث كلية الأداب – جامعة طنطا

المستخلص:

كانت العلاقات الأوروبية مع الدولة العثمانية في بداية نشأتها غير مقلقة لأوربا حيث كانت امارة صغيرة تقع على حدود الإمبراطورية البيزنطية. الى ان بدأت استراتيجية سلاطين الدولة العثمانية منذ مؤسسها الأول عثمان بن أرطغرل تتجه نحو التوسع، ومن هنا بدأت بيزنطة تتنبه الى الخطر القادم من تلك الامارة. لكن العثمانيين استطاعوا ان يستولوا على مدن الإمبراطورية البيزنطية في الاناضول. وكان للانتصارات العثمانيين صدى كبير في أوربا الغربية التي تخوفت من أتساع مُلك العثمانيين.الى ان حانت اللحظة الحاسمة لإنهاء الإمبراطورية البيزنطية عندما فتح العثمانيين القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني (الفاتح) وثبت العثمانيون أقدامهم في أوروبا. هنا تحولت استراتيجية أوروبا من الهجوم على الشرق لاحتلالها والاستيلاء على ثرواته الى الدفاع بهدف إنقاذ باقي أوروبا والحفاظ على أراضيها من السقوط في يد العثمانيين. وقد أصبح الوجود العثماني في أوروبا الشرقية حاجزا مانعا لاي تقدم اوروبي او روسي نحو الشرق الاسلامي.اتسعت الدولة العثمانية وصلت إلى أوج قوتها ونفوذها في عهد السلطان سليمان القانوني حيث انها بلغت حدودها الى أسوار فيينا جمع عززت وجودها في شمال أفريقيا وقد تبلغ مساحتها في قارات العالم الثلاث القديمة ١٤,٨٩٣,٠٠٠كم٢. وكانت الدولة العثمانية حتى بعد وفاة سليمان القانوني هي القوة العظمى الوحيدة عالمياً وصاحبة القول الفصل في أي معاهدات واتفاقيات تقع بينها وبين الدول الأوروبية.

الكلمات الإفتتاحية: العلاقات السياسية، العلاقات العسكرية، أوروبا، الدولة العثمانية، السلاطين العظام

أوربا والعالم الإسلامي قبل ظهور العثمانيين:

كانت الإمبراطورية البيزنطية قبل ظهور الإسلام تمتد وتسيطر على بلاد الأناضول أو أسيا الصغرى. ولما جاء الإسلام وتكونت دولته الأولى أزال الإمبراطورية الفارسية ودانت له أجزاء كبيرة من الإمبراطورية البيزنطية كبلاد الشام ومصر وتبع ذلك الشمال الأفريقي ووصل المسلمون إلى أطراف أرمينيا. وحاول المسلمون حصار القسطنطينية منذ عام ٥٠هـ وكرروا غزواتهم لها، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها وظلت قاعدة للإمبراطورية البيزنطية.

وفي أيام الدولة الأموية كانت جبال طوروس هي الحد الفاصل بين المسلمين والبيزنطيين. وعندما جاء العباسيون قام الخليفة المهدى بتوطين الأتراك من فرغانة وبلخ في المناطق الجبلية الفاصلة بين المسلمين والبيزنطيين. وفي عهد المعتصم أستطاع دخول عمورية. أما في عهد المتوكل أصبح الأتراك هم عماد الجيش في الدولة العباسية. (١) وغدت الثغور الأناضولية تحت أمرتهم وكانوا يخضعون للخليفة العباسي في بغداد.

وعندما ضعفت الخلافة العباسية وفكر الإمبراطور البيزنطي بالقضاء عليها كان السلاجقة الأتراك قد وصلوا إلى غربي الدولة العباسية ودخل زعيمهم طغرل بك بغداد وبدأ صراعه مع الروم البيزنطيين وأتجه إلى ديار بكر وقاتل البيزنطيين وأنتصر عليهم وعقد الهدنة معهم.

وفي عهد ألب أرسلان دخل مع الروم في حرب كبيرة وأنتصر عليهم انتصارا حاسما في معركة ملاذكرد عام ٤٦٣هـ /١٠٧١م. (٢) ولقد انتشر السلاجقة في الأناضول وتمكنوا من تأسيس إمارات لهم في الأناضول وأرمينيا وكان من إحدى هذه الإمارات التي أسسها سليمان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق وكانت مقرها قونية والتي أطلق عليها سلاجقة الروم. ولقد أعقبها قيام إمارات أخرى في أرمينيا كتلك التي أقيمت في كليكيا ومقرها أضنة وبقت قائمة حتى انهارت على يد المغول وأزداد توسع السلاجقة وانتشارهم في الأناضول في أيام ملكشاه بن ألب أرسلان.

ولقد بدأ التفكير الأوربي في العمل على كيفية وقف الزحف الإسلامي عليها فبدأ العمل على إرسال حملات لغزو العالم الإسلامي بدعوة حماية المسيحيين في الشرق وسميت تلك الحملات باسم الحملات الصليبية التي جاءت عام ٤٨٩هـ/١٠٩٦م. واستطاع الصليبيون أن يجتازوا الأناضول التي يقطنها السلاجقة وفصلوا المناطق الغربية عن المناطق الداخلية وأن يؤسسوا لأنفسهم إمارة الرها ودعمهم الأرمن الذين كانت لهم دويلة في كيليكيا مقرها أضنة. وأضطر الأمير قليج أرسلان صاحب نيقية أن ينقل مقر إمارته من نيقية إلى قونية. أما الإمبراطورية البيزنطية فقد تركت الصليبيون وشأنهم واتجهت لاسترداد بعض أملاك السلاجقة فاستولوا على أزمير وأفسوس وذلك لانقطاع هذه المناطق عن بقية السلاجقة في الداخل بالصليبيين.

---

(١) راغب السرجاني: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي، ج٢، ط٧، مؤسسة أقرأ للنشر، القاهرة٢٠٠٧م، ص. ١٢٤

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سليمان، ج١، مؤسسة فيصل، استانبول١٩٨٨م، ص ٦٧؛ زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، دار الفكر العربي للطباعة والنشر (د.ت)، ص (٥١)

هاجمت الحروب الصليبية بلاد الشام وتصدى لهم أل زنكي [١]حتى توفي نور الدين محمود. وعندما تولى صلاح الدين الأيوبي الأمر واسس الدولة الأيوبية بمصر والشام قام بصد الحملات الصليبية على الشام وانتصر على الصليبيين ودخل القدس في موقعة حطين ٥٨٣هـ /١١٨٧م. وبعد وفاة صلاح الدين اختلف الأمراء فيما بينهم وتجزأت الدولة الأيوبية الموحدة.

وهاجم المغول العالم الإسلامي من الشرق وخاف بعض الحكام المسلمين منهم وانضموا لهم ونقدم المغول غربا ووقعت بلاد سلاجقة الروم عام ٦٤١هـ تحت سيطرة المغول وأستسلم أمراءها لهم وفتحوا بلادهم لهم وساعدوهم في الحرب على المسلمين وساعدهم ملك الأرمن في احتلال بغداد ثم اتجه المغول نحو القدس لاحتلالها ولم يتعرضوا للنصارى، بل كانت بيوتهم أمنة في بغداد ودمشق. وفي تلك الفترة تولى سيف الدين قطز حكم دولة المماليك في مصر وتقابل مع المغول في عين جالوت وهزمهم ٦٥٨هـ. ومن بعده سار الظاهر بيبرس عام ٦٧٥هـ إلى بلاد السلاجقة الروم لينتقم منهم والتقى بهم وبحلفائهم المغول والكرج في معركة البستان شمال مرعش وأنتصر عليهم انتصارا مبينا ثم سار حتى فتح عاصمتهم قيصرية. ومع ضعف المغول زالت دولة سلاجقة الروم وقامت عدة إمارات في الأناضول التي كانت متنافسة مع بعضها البعض حتى جاء العثمانيون وكونوا دولتهم على أنقاض دولة سلاجقة الروم.

أوربا والدولة العثمانية (من النشأة ١٢٩٩م حتى نهاية عهد سليمان القانوني ١٥٦٦م):

أختلف المؤرخون حول أصل العثمانيين فمنهم من قال إنهم من الحجاز وأن عثمان جدهم فر إلى قرمان وخدم عند السلاجقة وتكلم لغتهم وصار له أعوان وعساكر. [٢] وهناك من ينسبهم إلى أبو مسلم الخرساني. وقيل انهم من الشراكسة من أولاد يافث بن نوح عليه السلام. [٣] أما المؤرخون الأتراك ينسبونهم إلى الغز أو قبيلة (قابي).

وهناك رواية لبعض المؤرخين من الحوليات العثمانية القديمة يوجد خلاف حول مدى صحتها تقول إن إحدى القبائل التركية قد أسدت في أثناء ترحالها خدمة كبيرة للسلطان علاء الدين السلجوقي سلطان دولة سلاجقة الروم (١٢١٩/١٢٣٥ م) حيث إن تلك القبيلة قد شاهدت جيشان يتقاتلان وأحدهما كان في موضع الضعف وكاد أن يهزم فساعدته تلك القبيلة وكانت سببا في انتصاره وتبين بعد ذلك أن هذا الجيش للأتراك السلاجقة فقد انتصروا لبنى جلدتهم في حربهم ضد فرقة مغولية من جيش الخان أو كطاي بن جنكيز خان. فكافأ السلطان علاء الدين رئيس تلك القبيلة وكان أرطغرل بن سليمان شاه ومنحة بقعة مترامية من دولته تشمل المنحدرات الشرقية من جبال طومانيج وأرمنى [٤] وأيضا سهول سوكود. وكان أرطغرل رجل ذو طموح سياسي كبير فلم يقنع بلقب أمير الحدود الذي منحه إياه علاء الدين السلجوقي،

(١) راغب السرجاني: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي، ج١، ط٧، مؤسسة أقرأ، القاهرة٢٠٠٧م، ص. ص. ٤٣٨-٤٤٢

(٢) محمد بن اياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٥، ط٢، القاهرة ١٩٨٢م، ص. ص. ٣٦٤-٣٦٥

(٣) اسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، تقديم: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت١٩٨٨م، ص. ٨

(٤) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة١٩٨٠،ص ٣٤

بل هاجم الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) ونجح في سياسته وضم إليه مدينة (إسكي شهر). [١]

بعد موت أرطغرل ١٢٩٩م خلفه ابنه عثمان الذي سميت القبيلة وبعدها الدولة باسمه وأعتنق الدين الإسلامي هو وقبيلته وكان متحمسا لعقيدته الدينية وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين. وبهذا اجتمعت العاطفة الدينية مع الروح العسكرية واصبحت سمة مميزة للعثمانيين في حروبهم مع أعدائهم. وأستطاع عثمان بن أرطغرل أن يوطد مركزه فوضع من النظم الإدارية الذي مهد لدولته ولتطورها ونتيجة تعرض الدولة البيزنطية للغزو اللاتيني حيث كان هناك خلافا دينيا وثقافيا بين العالم المسيحي الشرقي والعالم المسيحي الغربي. وأيضا تعرض دولة سلاجقة الروم للغزو المغولي فكان هناك فراغ سياسي هيأ لظهور دولة جديدة فتيه لكي تملئه. [٢]

ولقد نشأت الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول على تخوم الدولة البيزنطية الممثلة لأوربا المسيحية وقد قام عثمان بمهاجمتها وأحرز انتصارات عسكرية عليهم فمنحه السلطان السلجوقي علاء الدين الثالث لقب غازي (عالي الجاه) تقديرا لخدماته. هذا وبعد غزو المغول لدولة السلاجقة ١٣٠٠م وكان ذلك إيذانا بزوال دولتهم، وبعد وفاة السلطان علاء الدين الثالث ١٣٠٧م. أعلن عثمان بن أرطغرل استقلاله عنهم كغيره من الأمراء الأخرين وبدأ في تأسيس دولة لنفسه ولخلفائه من بعده سميت باسمه.

وبدأ عثمان في توسيع رقعة دولته فأستولى على قلعة عك حصار ووصل بذلك إلى البسفور ثم استولى على كالوليمنى ١٣٠٨م والتي تقع على بحر مرمرة على مقربة من خليج مودانيا وسقطت أيضا قلعة تريكوكا في أيدي العثمانيين والتي تشرف على طريق المواصلات بين نيقية ونيقوميديا.

ونتيجة لذلك شعرت بيزنطة بتهديد تلك الإمارة الجديدة ذات القوة المتنامية فقرر الإمبراطور البيزنطي تركيز اهتمامه وقوته على الجانب البحري ليمنع وصول العثمانيين إلى أراضيه الأوربية وقد كان عثمان يعي ذلك حيث دولته الناشئة لا تمتلك أسطولا بحريا بعد. فبدا يستولى على المناطق البيزنطية المجاورة. حتى أنه أنشأ قلعتين مجاورتين لبورصة قبل أن ينوى فتحها وعين ابنه أورخان عليها. [٣]

ولقد كان لغزو العثمانيين للدولة البيزنطية ان خلق حالة من اليقظة بين سكان العالم المسيحي الشرقي لأوربا كرد فعل على سيطرة دولة إسلامية على اجزاء من بلادهم. إلا أن هذه اليقظة ظل يحجبها العداء بينهم وبين العالم المسيحي الغربي الأوربي والذي يفوق عدائهم للعالم الإسلامي. وقد سهل ذلك مهمة العثمانيين في غزو الدولة البيزنطية وتكوين دولتهم الكبرى. [٤]

بعد وفاة عثمان اكمل ابنه أورخان سيرته وفي عهدة أستطاع أن يفتح بورصة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م من غير حرب وأسلم حاكمها أفرينوس الذي أصبح بعد ذلك من مشاهير القادة العثمانيين وأتخذ أورخان بورصة

(١) إسكي شهر: هو اسم لمدينة وتعنى باللغة التركية المدينة القديمة او الحصن القديم، المرجع السابق: ص٣٥

(٢) عبد العزيز الشناوي: نفس المرجع السابق: ص (٣٩)

(٣) عبد العزيز الشناوي: نفس المرجع السابق، ص (٤٢)

(٤) محمد انيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤/١٩١٤)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٣، ص. (١٠)

قاعدة له وأصبح سلطانا حقيقيا[١] هذا وقد تمكن أورخان من الاستيلاء على إيزنك ٧٣١هـ/١٣٢٩م ولم يفلح الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس بوليولوجوس الثالث من استرجاعها من أيدى العثمانيين وكان لذلك صدى كبير زاد من شهرة السلطان أورخان الذي أتبع سياسة حصيفه مع البيزنطيين تساندها القوة العسكرية ولا تميل إلى البدء بالاعتداء وكان هدفه الرئيسي هو النفاذ إلى البحار المفتوحة [٢] والوصول إلى المضايق.

أقر أورخان قواعد دولته المستمدة من النظم الإسلامية وبدأ في إرسال جيوشه إلى ما تبقى من بلاد أسيا الصغرى فأتجه إلى أزميد وأستولي على القاعدة المسماة إيدوس وحاصر مدينة نيقوميديا ووصل إلى قلعة قيون حصار واثناء ذلك سلمت بلاقونيه حاكمة أزميد المدينة للسلطان أورخان الذي عاملها معاملة طيبة وارسلها مع جنودها ومن يريد من أهل المدينة إلى القسطنطينية بالسفن [٣] بناء على رغبتها. وخلال حكم أورخان استولى على ما تبقى من البلاد البيزنطية الواقعة شمال غرب الأناضول دون صعوبة ومنها بلاد مدرنى وكمليك. [٤]

ولقد عقد أورخان هدنة مع قيصر الروم ١٣٣٠م/٧٣٢هـ بناء على طلبه لمدة عشرين عام وتجددت مرة أخرى عام ١٣٤٥م وأرتبط أورخان مع الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس ومن جاء بعده برباط الود والصداقة. إلا أن قيصر الروم كان يدعم ويقوى صفوفه للانقضاض على العثمانيين. وبعد عشر سنوات من تلك الهدنة اتحد القيصر مع البنادقة الذين كانوا يهاجمون الدولة العثمانية من الجهة البحرية وكانت العلاقة بين البنادقة والجنويين متوترة وتنشب الحرب بينهما من حين لأخر وكان أورخان يكره البنادقة فساعد الجنوبيين ضدهم ونصرهم عليهم. كما ساعد أورخان البابا يوحنا بولوجوس في الحرب الأهلية التي حدثت بينه وبين صهره الإمبراطور للمطالبة بأحقية عرش القسطنطينية. [٥] وأرسل أورخان ابنه سليمان للسيطرة على قلعة جمنك. وفي عام ١٣٥٧م/٧٥٨هـ قام الروم بعقد حلف صليبي مع المجر والصرب والبلغار والافلاق والبغدان لقتال سليمان بسبب فتوحاته في أوربا وتدخله في أحوال الدولة الرومية. فطلب أورخان من ابنه أن يسير لقتال هذا التحالف فأنقض عليهم بجنوده من جبال البلقان وأوقع بهم الهزيمة واتجه بعدها الى بلاد البلغار لإخماد ثورتها واضطراباتها. [٦] وتوالت فتوحات أورخان وولى عهده سليمان حتى استولوا على غاليبولي ١٣٥٨م وأصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا. [٧]

تولى مراد الأول حكم الدولة العثمانية (١٣٦٢/١٣٨٩م) بعد وفاة والده أورخان وقبله سليمان أخيه وولى العهد. وقد كانت شبة جزيرة البلقان وجهة مراد الأول الأساسية فقضى على تمرد بعض الثائرين وأستولي على أنقرة. واتخذ من ديمتوقة قاعدة عسكرية وقام بحملة على أمراء البلقان وهزمهم حتى خضعوا لسلطان العثمانيين. وفي ١٣٦٦م/٧٦٨هـ [٨] توجه الى أدرنه واستولى عليها وجعلها عاصمة

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط١، دار النفائس، بيروت ١٩٨١م، ص. ١٢٠

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، مصدر سابق، ص. ٩٤

(٣) اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، ج١، ط١، المطبعة الأميرية، بولاق ١٨٩٦م، ص. ٤٨٩

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفي: أصول التاريخ العثماني، ط١، دار الشروق، بيروت ١٩٨٢م، ص. ٤٥

(٥) حسين لبيب: تاريخ الأتراك العثمانيين، ج١، مطبعة الواعظ، القاهرة ١٩١٧، ص. ١٥

(٦) اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، ج١، مصدر سابق، ص. ٤٩٠

(٧) احمد مصطفي عبد الرحيم: أصول التاريخ العثماني، مرجع سابق، ص. ٤٧

(٨) جمال الدين فالح الكيلاني: التاريخ العثماني تفسير جديد، مراجعة د. عماد عبد السلام، أربيل ٢٠١٢م، ص. ٨

للدولة. أضطرب المسيحيون المتاخمون للدولة العثمانية وطلبوا من البابا أوربانوس الخامس ان يدعو ملوك أوربا الغربيين ليساعدوهم في حربهم ضد العثمانيين المسلمين وإخراجهم من أوربا خوفا من امتدادهم ونشرهم للإسلام إلى ما وراء البلقان. (١)

وبالفعل قاد البابا أوربانوس حملة صليبية لاسترداد أدرنه من العثمانيين، ولكنه فشل في تحقيق ذلك بعد ما علم مراد الأول وأستعد لهم وقابلهم عند نهر ماريتزا (٢)ودار قتال عنيف بينهم انتهت بهزيمة القوات الصليبية الذين ولوا هاربين بعد أن تملكهم الرعب. (٣) ونتيجة هذه الحروب العثمانية الناجحة ضد البيزنطيين فرض مراد الأول عليهم الجزية فخاف بعض زعماء أوربا وأعلنوا خضوعهم ودفعوا الجزية بينما البعض الأخر ظل يقاوم الزحف العثماني. (٤)

وفي عام ١٣٧٤م/٧٦٧هـ حاول ملك الصرب لازار ان يتحرش بالقوات العثمانية وأتحد مع ملك البلغار على حرب العثمانيين وطردهم وعندما علم السلطان مراد الأول ذهب إليه بنفسه، ولكن لازار هرب إلى الجبال وأستولي مراد الاول على نيش. ولقد طلب لازار الأمان فقبل منه مراد ذلك،

وكان الانتشار السريع للعثمانيين المسلمين في أوربا أثره البالغ في بث الرعب في قلوب حكام أوربا الذين قرروا أن يجمعوا قوتهم لشن حملة أوربية صليبية كبيرة لطرد العثمانيين من أوربا وكانت أمالهم منعقدة على تلك الحملة. (٥)

ولقد تزعم ملك الصرب لازار تلك الحملة الذي كون جيشا أوربيا بلغ نحو المائتي ألف. وحدثت معركة كبيرة بينهما في سهل قوصوه ١٣٨٩م/٧٩٢هـ وأنتصر العثمانيون وأسر من قوات التحالف الأوربي كثيرون وقتل لازار زعيمهم. (٦) وأثناء تفقد السلطان مراد الأول القتلى والجرحى بعد المعركة قام جندي صربي من بين القتلى يدعى (مليوك كوبلوفتش) وأظهر أنه يريد تقبيل قدمي السلطان بعد أن أعلن إسلامه وإذ به يخرج خنجرا ويطعن به السلطان طعنه قاضيه. وتوفي مراد الأول ودفن في بروسه. (٧)

هنا يمكن القول إنه إذا كان عثمان أوجد جنسا، وأورخان بنى دولة، فمراد الأول هو الذي أرسى قواعد الدولة العثمانية التي اتسعت في عهده إلى ٥٠٠ ألف كم٢ بعد أن تسلمها (٨) وهي قرابة ٩٥ ألف كم٢عن أبيه أورخان. ومن العوامل التي ساعدت العثمانيين الأتراك على الدخول إلى العالم الإسلامي وظهورهم

(١) محمد فريد بك: مصدر سابق، ص. (١٣٠)

(٢) نهر ماريتزا Marica/Maritza ينبع من بلغارية وبحر اليونان ويصب في بحر إيجة / محمد فريد بك: المصدر نفسه، هامش رقم (٣)، ص. (١٣١)

(٣) على حسون: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، ط٣، المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٣م، ص. ٢٢

(٤) تيسير جبارة: تاريخ الدولة العثمانية (١٢٨٠-١٩٢٤م)، ط١، فلسطين ٢٠١٥م، ص. ٤٠

(٥) أورخان محمد على: السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، ط٤، إسطنبول ٢٠٠٨م، ص. ١٨

(٦) إبراهيم بك حليم: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٨٨م، ص. ٤٥

(٧) اسماعيل سرهنك: مصدر سابق ج١ ص. (٤٩٣)؛ إبراهيم بك حليم: مصدر سابق، ص (٤٥)؛ عبد اللطيف عبد الله بن دهيش: قيام الدولة العثمانية، ط١، مطبعة النهضة، مكة المكرمة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص. (٣٦)؛ على حسون: مرجع سابق، ص. (١٩)

(٨) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة ١٩٩٤م، ص. (١٥)

كقوة عسكرية وسياسية متميزة تتمثل في أنهم حينما دخلوا الإسلام أتبعوا المذهب السني رغم ان حكام الشيعة كانوا يسيطرون على أكثر من مكان وهذا يعنى أنهم أردوا تأكيد استقلالهم عن السلطات الشيعية. وأعتبر كثير من المسلمين أن دخولهم في طاعة الترك هجرا للبدع وإحياء لسنن السلف. أيضا وصف الأتراك العثمانيين حروبهم بالجهاد والحرب المقدسة وأن الحروب التي يشنونها ضد البيزنطيين تضف عليهم شرفا كبيرا باعتبارهم حماة العقيدة والدين الإسلامي وهذا جعلهم يحتلون مكانة كبيرة في نفوس عامة المسلمين في كل البلاد الإسلامية. (١)

تولى يلدرم بايزيد حكم العثمانيين (١٣٨٩/١٤٠٢م) (٧٩١/٨٠٤هـ) وقد دخل في طاعته ملك الصرب ستيفان بن لازار. وفي عهده سقطت مدينة الأشهر (فلادليفيا) في أيدي العثمانيين وهي أخر ممتلكات البيزنطيين في الأناضول. كما خضعت بلاد البلغار للدولة العثمانية ١٣٩٢م.

ولقد كان للانتصارات العثمانيين صدى كبير في أوربا الغربية التي تخوفت من أتساع مُلك العثمانيين. فدعى البابا بونيفاسيوس التاسع للحرب ضد العثمانيين وإذ بتلك الدعوة تجد صدى في أوربا وقام سيجمند ملك المجر بجمع جيش كبير من كل أنحاء أوربا الغربية وأصطدم مع بايزيد الأول الذي أستطاع هزيمتهم في موقعة نكبولى ١٣٩٦م التي ثبتت أقدام العثمانيين في البلقان. (٢) هذا وقد أتجه بعد ذلك لشبة جزيرة المورة وأنتقم ممن تحالفوا وساعدوا البيزنطيين.

هذا ولقد طلب بايزيد الأول (٣) من أمير المؤمنين المقيم بمصر في عهد السلطان المملوكي برقوق أن يخلع عليه لقب سلطان الروم لكي تزداد هيبته في أنحاء أوربا وقد أيد السلطان الظاهر برقوق ذلك والذي قد خرج لصد هجمات تيمورلنك عن بلاد الشام وتحالف مع طقتمش خان ملك القفجاق والسلطان العثماني بايزيد الأول وقد نجح هذا التحالف في ابعاد تيمورلنك عن الشام بعد أن علم بذلك التحالف.

وبدأ تيمورلنك بمحاربة طلقمتش خان وانتصر عليه في الوقت الذي توفي فيه الظاهر برقوق وحدثت اضطرابات في السلطنة المملوكية بعد وفاته وبهذا انتهى ذلك التحالف ضد تيمورلنك ولم يبق إلا بايزيد الأول وقد تقابل الجيشان العثماني والمغولي في ١٤٠٢م/٨٠٥هـ حيث بدأ المغول بالهجوم على أنقرة بجيش قوامه سبعمائة ألف في حين أن جيش بايزيد كان قوامه ثلاثمائة ألف. ومن المعروف أن تيمورلنك كان مسلما من سلالة جنكيز خان فأثر ذلك على حماس الجنود المسلمين العثمانيين سلبا بالإضافة إلى الفرق العددي الكبير لجيش تيمورلنك على جيش بايزيد الأول، اجتمعت تلك الأسباب مع تعرض بايزيد الأول للخيانة بانسحاب الأمراء التركمان وانصراف العناصر التترية عن جيشه مما أدى إلى هزيمة كبيرة للعثمانيين حيث وقع بايزيد الأول وابنه موسى جلبي في أسر تيمورلنك. وبعدها بشهور مات بايزيد

(١) بول كولز: العثمانيون في أوربا، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م، ص. (٢٢)

(٢) سيد محمد السيد: تاريخ الدولة العثمانية (النشأة - الازدهار)، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٧م، ص (١٢٢)

(٣) تاريخ تقى الدين بن شهبة: محطوط بمعهد المخطوطات العربية (ميكروفيلم رقم ٢/١٩٩، ج٢، ورقة ١٠٢)؛ تقى الدين المقريزي: السلوك لمعرفة دولة الملوك (٣٥٦/٥) / جمال الدين بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٥٨/١٢) / نقلا عن محمد أسامة زيد: منهل الظمأن لإنصاف أل عثمان ج١، ط١، دار الفؤاد، فارسكور ٢٠١٢م، ص (٥٣)

في الأسر كمدا. [١] وأرسل تيمور جثمانه إلى بورصة وأطلق سراح ابنه موسى جلبي. ولقد بلغت مساحة الدولة العثمانية قبل هزيمة أنقرة ٩٤٢٠٠٠ كم٢ [٢] ولولا غارة تيمورلنك على العثمانيين لتقدمت واتسعت أكثر من ذلك.

بعد غارة تيمورلنك على العثمانيين دخلت الدولة العثمانية في فترة اضطرابات ونزاعات بين أبناء بايزيد الأول (١٤٠٢/١٤١٣م) انتهت بتولي أصغر أبنائه محمد جلبي حكم الدولة العثمانية (١٤١٣/١٤٢١م) (٨١٦/٨٢٤هـ). الذي وحد شمل الدولة ووطد دعائمها مرة أخرى. في عهد السلطان محمد جلبي أعلن دوق الهرسك الدخول في طاعة العثمانيين وتم فتح سراييفو ٨١٨/١٤١٥هـ. ومنح محمد جلبي الصرب واليونان امتيازات خاصة لمساعدتهم له. وكان هدفه ترسيخ دعائم الدولة فقضى على الحركات الثورية التي هددت كيان الدولة كحركة الشيخ بدر الدين أحد فقهاء الشرع الذي كانت حركته صوفية في بادئ الأمر وكان ينادى بإلغاء الملكية. فنجح محمد جلبي في القبض عليه وأعدمه.

أما عن علاقة السلطان محمد جلبي بالإمبراطور البيزنطي فقد كان السلطان قد قضى على تمرد لأخيه مصطفي الذي لجأ إلى حاكم سلانيك البيزنطي وعندما علم الإمبراطور البيزنطي ذلك رفض أن يسلمه الى السلطان محمد، بل طالبه بمقابل مصاريف إعاشة أخيه الأمير مصطفي. [٣] مما يدل على أن الدولة العثمانية لم تكن استردت عافيتها بعد هزيمة انقرة القاسية.

توفي السلطان محمد جلبي وتولى ابنه مراد الثاني (١٤٢١/١٤٥١م) (٨٢٤/٨٥٥هـ) فعمل على استرداد الولايات التي خرجت عن طاعة العثمانيين بعد وصول تيمورلنك إليها فأسترد بلاد القرمان في ١٤٢٨م وأتجه بعد ذلك لاستعادة ما أستقل من بلاد أوربا وخاصة بلاد البلقان فحارب ملك المجر وفتح مدينة كولمباز الواقعة على شمال نهر الدنواب الأيمن حتى يكون هذا النهر فاصلا بين مملكة المجر والدولة العثمانية. [٤] وأعاد مراد الثاني فتح سلانيك١٤٣٠م وأخضع بلاد ألبانيا ثم الفلاخ ١٤٣٣م وواصل غارته على ترانسلفانيا وحاصر مدينة (هرمان ستاد) [٥] التابعة لملك المجر وكان حاكمها يدعى حنا هونياد الذي أستطاع الدفاع عن المدينة وأنتصر على العثمانيين الذين تراجعوا، وتم قتل قائد القوة العثمانية شهاب الدين باشا، وتغلب على العثمانيين في مدينة نيش.

وفي هذا الأثناء توفي الأمير علاء الدين ابن مراد الثاني وولى عهده فحزن عليه حزنا شديدا. وعندما أرسل إليه حنا هونياد طالبا الصلح وافق عليه ١٤٤٤م على أن تبقى بلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأبناء العمر (٥/٥٧-٦١)؛ أحمد بن يوسف القرماني: أخبار الدول وأثار الأول (٣/١٨-٢٠)؛ ابن عرب شاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص. (٢٦-١٣٣)؛ حسين خوجة بن على: بشاير أهل الإيمان بفتوحات أل عثمان (ورقة ٣٦-٣٨)؛ نقلا عن محمد أسامة زيد: مرجع سابق، ص. (٥٧)

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج،١مصدر سابق ص (١١١)

(٣) اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار، مصدر سابق، ج١، ص. (٤٩٩)؛ نيقولا فاتان: صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (١/٨٥)؛ د/صلاح محمد ضبيع: العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر أل باليوجوس ص. (٢٢٢)

(٤) محمد فريد بك: مصدر سابق، ص. ص. ٢٥٣-٢٥٤

(٥) تقع في رومانيا إلى الشمال الغربي من العاصمة بوخارست، هامش رقم (٢) محمد فريد بك: مصدر سابق، ص.

وتضمنت المعاهدة هدنة لمدة عشر سنوات وقيل ثلاث سنوات. وقد أقسم ملك المجر على الإنجيل وأقسم مراد الثاني على القرأن للوفاء بهذه المعاهدة. (١)

تنازل مراد الثاني عن الحكم لابنه محمد الثاني وكان صغيرا في السن فنقض المسيحيون الهدنة بعد أشهر قليله من نفس عام عقد الهدنة ونظموا لقيام حملة صليبية جديدة وتوجهوا نحو أراضي البلغار واجتازوها وهاجموا الحامية العثمانية وواصلوا تقدمهم إلى البحر الأسود واستولوا على وارنه. (٢) فأضطر السلطان مراد الثاني للعودة للحكم وتصدى للحملة الصليبية وأسترد وارنه مرة أخرى وواصل تقدمه وأخضع البوسنة والصرب اللتين اعترفتا من جديد بالسيادة العثمانية خوفا من التحول القسري للكاثوليكية فيما لو أنتصر هونياد زعيم التحالف الصليبي العدو التقليدي للدولة العثمانية. كما واجه مراد الثاني تمرد من الإنكشارية حيث ثاروا على حكم الأمير محمد لحداثة سنه وقد أخمد مراد الثاني ثورتهم وشغلهم بحروب المورة حتى أستسلم أهلها وقبلوا دفع الجزية. (٣)

حاول هونياد الغارة على بلاد الصرب فأصطدم بالجيش العثماني في وادي قوصوه في معركة حاسمة أنتصر فيها مراد الثاني نصرا عظيما ١٤٤٨م/٨٥٢هـ حيث أعاد انتصارات سلفه مراد الأول على الصرب ١٣٨٩م.

توفي مراد الثاني في أدرنه ١٤٥١م وتولى السلطان محمد الثاني السلطة في الدولة العثمانية الذي بدأ في تأمين حدود دولته من ناحية نهر الدانوب وألتزم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بدفع الجزية. ولم يتبق من الممتلكات البيزنطية إلا القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ودرة تاجها وما حولها من ضواحي. (٤)

وقد أخذ محمد الثاني يتمم فتح ما تبقى من بلاد البلقان واضعا هدفه الأسمى نصب عينيه ألا وهو فتح القسطنطينية. (٥) وقد كان يدرك أن الإقدام على مثل تلك الخطوة تتطلب تفرغه التام لتلك المهمة. لذا فقد عمل على توثيق العلاقات بينه وبين القوى المجاورة وأبتعد عن إثارة الخلافات معهم. فأسرع إلى عقد المعاهدات مع ملوك وأمراء أوربا الذين أرسلوا له الوفود لتهنئته على توليه عرش السلطنة. وأظهر محمد الثاني من المرونة ليضمن تحيدهم وتوقيفهم عن تقديم أي مساعدة عندما يقرر توجيه ضربته الحاسمة نحو القسطنطينية. وعندما فوجئ محمد الثاني بعصيان أمير القرمان السلجوقية سارع إلى إخماد الفتنة بأن عقد الصلح معهم. وفي طريقة إلى بروسه أعلن أمراء منتشيا وكرميان العصيان ضد الدولة

---

(١) حسين خوجة بن على: بشاير أهل الإيمان بفتوحات أل عثمان (ورقة ٥٧ ،٥٨)؛ على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده: كمال الإنسان في معرفة أل عثمان (ورقة ٥٥،٥٦)؛ عن محمد أسامة زيد: مرجع سابق، ج١، ص. (٧٣)؛ جون باتريك كينروس: القرون العثمانية، قيام وسقوط الإمبراطورية، ترجمة د. ناهد الدسوقي، منشأة المعارف، الإسكندرية ٢٠٠٣، ص. ٩٤

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفي: في أصول التاريخ العثماني، مرجع سابق، ص. (٦٤)؛ يوسف أصاف: تاريخ سلاطين أل عثمان، ج٢، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٥م، ص. (٥٤)؛ على حسون: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص. (٢٦)

(٣) محمد فريد بك: مصدر سابق، ص. (١٥٨)

(٤) محمد مصطفي صفوت: فتح القسطنطينية، ط١، مكتبة الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨م، ص. (١٣)

(٥) يلماز أوزتونا: مصدر سابق، ج١، ص. (١٣)

العثمانية [١] فأرسل قواته إليهم وأخمد تلك الثورات المسلحة. ولقد أغرت تلك الثورات الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر لانتهاز الفرصة لإبعاد الخطر عن القسطنطينية فبعث للسلطان محمد الثاني يهدده بأنه سيساعد الأمير أورخان حفيد سليمان بن السلطان بايزيد الأول الذي لجأ إلى القسطنطينية أثناء الصراع على السلطة عقب موقعة أنقرة لكي ينازع محمد الثاني على السلطة إذا لم يخصص له بعض المخصصات المالية فغضب محمد الثاني وكان ذلك هو أحد الأسباب القوية التي دفعته إلى اتخاذ القرار والتدابير لفتح القسطنطينية. [٢]

تمتاز القسطنطينية بالموقع الجغرافي الهام، فهي نقطة الاتصال بين قارتي أسيا وأوربا عن طريق مضيقي البوسفور والدردنيل اللذين يصلان البحر المتوسط بالبحر الأسود بواسطة بحر مرمرة. وكان هناك دافع ديني أستند عليه محمد الثاني يخص حديث نبوي شريف عن النبي الرسول محمد صل الله عليه وسلم حيث يقول " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش" [٣]

أتخذ محمد الفاتح عدة تدابير للتمهيد لإحكام سيطرته في حصار القسطنطينية حيث أمر ببناء قلعة على الطرف الأوربي لساحل الروميلي من البسفور عرفت باسم روميلي حصار في ١٤٥٢م/٨٥٦هـ في الجهة المقابلة لقلعة أناضولي حصار التي أقامها بايزيد الأول عند استعداده لحصار إستانبول من قبل وذلك للسيطرة على مضيق البسفور وقطع المساعدات التي يمكن أن ترد إلى بيزنطة عن طريق البحر الأسود ولتأمين عمليات نقل القوات العثمانية من الأناضول إلى الروميلي والعكس. وأثناء عملية إنشاء القلعة أمر السلطان بنصب المدافع الكبار التي سوف تشارك في الحصار تحت إشراف المهندس المجرى أوربان الذي كان قد لجأ إلى العثمانيين. [٤] وعندما علم الإمبراطور البيزنطي نية محمد الثاني وإصراره على بناء القلعة أرسل يعرض عليه أنه سيجيب لأي مطالب يطلبها السلطان محمد الثاني، ولكنه رفض طلبه وقال لرسل الإمبراطور مهددا الإمبراطور ورسله بأنه مقدم على فتح القسطنطينية وأنه سيسلخ جلد أي رسول يأتي مرة ثانية من قبل الإمبراطور. [٥]

وفيما يخص فتح القسطنطينية أستمع محمد الثاني إلى رأيان متعارضان في الديوان الهمايوني الأول عبر الوزير جندارلي خليل باشا الذي كان يميل لمهادنة الإمبراطور البيزنطي خشية إرسال أوربا حملة

(١) زياد أبو غنيمة: السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية، ط٢، دار الفرقان، عمان ١٤٠٤هـ، ص. ص. ٢٩-٣٢

(٢) إبراهيم بك حليم: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مصدر سابق، ص. (٦٤)

(٣) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد. بيروت المكتب الإسلامي، ج٤، ص. ٣٣٥

(الحديث مختلف في صحته فقد صححه الحاكم والذهبي وضعفه الألباني والأرناؤوط في تحقيق المسند. ويقول الشيخ حمود التويجري في كتابه "إتحاف الجماعة " إلى أن فتح القسطنطينية المقصود في الأحاديث هو ما يقع أخر الزمان قبل خروج الدجال.)

)4(Önder Bayır," Çağ Açan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar"، Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/322-324. ; -Nicolo Barbaro, Kostantıniyye Muhasarası Ruznamesi 1453, çev. Ş.T.Diler,İstanbul 1953, s. 20 vd.,

نقلا عن/ سيد محمد السيد محمود: تاريخ الدولة العثمانية (النشأة – الازدهار) وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة- القاهرة، مكتبة كلية الأداب،٢٠٠٧، ص. (١٨٦)

(٥) كامل باشا: تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية، ج١، مطبعة أحمد احسان، ١٣٢٧هـ، ص. (٧٨)

صليبية قد تنال من الدولة العثمانية. أما الرأي الثاني عبر عنه معلم السلطان زاغنوس حيث كان يرى أن الدول المسيحية غارقه في خلافاتها وأن الجيوش العثمانية تفوقها عددا وعدة تمكنها من فتح القسطنطينية والسيطرة عليها قبل وصول أي إمدادات أوربية إلى المدينة. وقد أخذ محمد الثاني بالرأي الثاني.

وبعد ثلاثة أشهر أكتمل العمل في قلعة الروميلي حصار وعين عليها محمد الثاني قائدا وأمره ألا يسمح لأي سفينة بالمرور من البسفور إلا بعد تفتيش دقيق وتحصيل الرسوم منها [١] وبذلك ضمن عدم وصول أي إمدادات للقسطنطينية خاصة من مملكة طرابزون النصرانية. [٢]

أرسل الإمبراطور البيزنطي إلى جميع ملوك أوربا وأمرائها يستنجد بهم ويحثهم على نجدته ومساعدته وبعث أيضا إلى البابا نقولا الخامس طلبا لدعمة ومساندته وفي نفس الوقت يحذره من عواقب سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين وأن إيطاليا ستكون هدفا لهم بعد ذلك.

وهنا نجد الاختلاف المذهبي مع التعصب الديني له فيما بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية كان كالحاجز المانع الذي عرقل نجاح البعثات التي أرسلها الإمبراطور البيزنطي ولقد بذلت مساعي دبلوماسية أوربية للتوفيق بين الكنيستين رغبة في اتحادهم أمام المسلمين العثمانيين. [٣] بناء عليها وافق الإمبراطور البيزنطي على دخول الكنيسة الأرثوذكسية تحت مظلة البابا في روما وان يذكر اسم البابا في أيا صوفيا وأن ينتهي النزاع بين الكنيستين في القسطنطينية في مقابل الوقوف ضد الغزو العثماني الوشيك. وبدأ الإمبراطور في إصلاح أسوار القسطنطينية ووصلت المساعدات الأوربية من جنوة تحت قيادة جستنيان الذي عين قائدا لقوات الدفاع عن المدينة ومن البابوية وأسبانيا وغيرها. [٤]

قام الإمبراطور البيزنطي بإغلاق أبواب المدينة والقبض على كل العثمانيين الأتراك داخل الإمبراطورية وعند ذلك أعلن محمد الثاني الحرب لفتح القسطنطينية وأستعد لذلك وتحرك بجيوشه ووصل إلى المدينة في ٥ أبريل ١٤٥٣م /٢٥ ربيع الأول ٨٥٧ هـ. وحاصرها وكان معه جيش مؤلف من١٥٠ إلى ٢٠٠ ألف جندي إضافة للأسطول العثماني الذي شارك في حصار المدينة إلا أن حصار المدينة لم يكتمل وذلك لتعذر الوصول إلى أسوار المدينة الموجودة ناحية الخليج وذلك بسبب سد الخليج أمام السفن العثمانية بسلسة عظيمة. أما القوات البيزنطية كانت مؤلفة من خمسة ألاف جندي إضافة إلى مثيلهم من المتطوعين وثلاثة ألاف من القوات المساعدة التي وصلت من البندقية وجنوة وجزر كريت وسافيز وأسبانيا مع وجود ٣٩ قطعة بحرية تدافع من ناحية البحر. [٥]

---

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمي: فتح القسطنطينية، ط٥، دار القلم، دمشق١٩٩٣م ص. (٤٠)

(٢) زياد أبو غنيمة: السلطان المجاهد محمد الفاتح فاتح القسطنطينية، مرجع سابق، ص. (٣٤)

(٣) محمد مصطفي صفوت: فتح القسطنطينية، مرجع سابق، ص. (٥١-٥٢)؛ خلف بن دبلان بن خضر الوذنياني: الدولة العثمانية والغزو الفكري، رسالة دكتوراة، ط٢، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ٢٠٠٣، ص (١٠٩)

)4(D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1453)، tec. B. Umur Istanbul 1999, s. 455vd;

نقلا عن/ سيد محمد السيد محمود: مرجع سابق، ص. ١٨٧

)5(Önder Bayır," Çağ Açan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/326-329;

عن/ سيد محمد السيد محمود: مرجع سابق ص. ١٨٨

أرسل محمد الثاني إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر يطلب منه تسليم المدينة سلما حقنا للدماء فرفض الإمبراطور وعرض دفع الجزية التي يقرها السلطان بموجب معاهدة بينهما. لذلك بدا الهجوم العثماني على المدينة بضربها بالمدافع الضخمة العثمانية إلا أن الهجوم الأول لم يأت بنتائج ملموسة غير أنه أثر معنويا على حالة من يدافعون عن المدينة في الوقت الذي وصلت فيه الإمدادات من البابا للقسطنطينية بوصول السفن الجنوية التي اشتبكت مع الأسطول العثماني مما أضطره للتراجع وذلك لحداثة وتطور السفن الجنوية عن السفن العثمانية. ولقد وضع محمد الثاني خطة مبتكرة لنقل مزيد من السفن عن طريق البر ولمسافة ميلين من بحر مرمرة إلى مياه القرن الذهبي. فمهد الأرض في ذلك الطرق وفرشه بألواح من الخشب مدهونة بالزيت لتسهيل انزلاق السفن عليها وقد نجحت حيلته في نقل سبعين سفينة في ليلة واحدة ولم يشعر البيزنطيون بذلك بسبب أ المدافع كانت تطلق قذائفها للتغطية على عملية نقل السفن. (١)

عبر المؤرخ البيزنطي الأمير دوكاس عن خطة نقل محمد الثاني للسفن " ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق محمد الثاني حول الأرض إلى بحار وعبرت سفنه فوق قمم الجبال بدلا من الأمواج لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر." (٢) أيضا انتشرت بين أهل القسطنطينية مقولة جديدة تقول {ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفنا تمر على اليابس}. (٣)

انهارت معنويات البيزنطيين عند رؤيتهم سفن الأسطول العثماني يموج به الخليج. وبدأ الهجوم الأخير على القسطنطينية ٢٩ مايو ١٤٥٣م/٢٠ من جمادى الأول ٨٥٧هـ وتقدمت الجيوش ووضعوا السلالم وتسلقوا أسوار المدينة ودخلوها ورفعوا العلم العثماني (٤) واندفعوا يقاتلون البقية من البيزنطيين حتى انهزموا وعندما رأي قسطنطين ما ألت إليه الأمور هاجم بنفسه على الجنود العثمانيين يقاتلهم حتى لقى حتفة في ساحة المعركة وفتحت كل أبواب المدينة بعد فرار من تبقى من المدافعين عنها. (٥)

بهذا الفتح للقسطنطينية لقب محمد الثاني بالفاتح وأصبح سلطانا للروم وقد دخل المدينة وأتجه إلى أيا صوفيا ولم يعتد جنوده على سكان المدينة واستقبله الأهالي بالتهليل وقد أمر الرهبان بإخلاء أيا صوفيا وأمر بأن يؤذن فيها للصلاة إعلانا بجعلها مسجدا جامعا للمسلمين. (٦)

وقد بحث محمد الثاني عن جثة قسطنطين وأحضرها للرهبان وأمر بدفنه وأنه ضمن حرية إقامة شعائر المسيحيون في المدينة وحفظ أموالهم وأملاكهم وقد اعطى نصف الكنائس للمسيحين والنصف الأخر للمسلمين كجوامع لهم. وقد طالب رجال الدين المسيحي بانتخاب رئيس لطائفتهم فاختاروا جورج

(١) يوسف اصاف: تاريخ سلاطين أل عثمان، ج٢، مصدر سابق، ص. ٥٦؛ عبد السلام عبد العزيز فهمي: فتح القسطنطينية، مرجع سابق، ص. ٦٢؛ على حسون: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص. ٣٦

(٢) يلماز أوزتونا: مصدر سابق، ج١، ص. ١٣٥

(٣) عبد السلام عبد العزيز فهمي: مرجع سابق، ص. ٦٣

(٤) برنارد لويس: إسطنبول، تعريف سيد رضوان على، ط٢، دار السعودية للنشر، جدة، ١٩٨٢م، ص. ٢٢

(٥) كامل باشا: تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية، مصدر سابق، ص. ٨٦

(٦) برنارد لويس: إسطنبول، مرجع سابق، ص (٢٣)

سكولاريوس وأعتمد السلطان محمد الفاتح ذلك واعطاه حرية القضاء في القضايا المدنية والجنائية الخاصة بطائفته مقابل دفع الجزية والخراج. (١)

عمت الأفراح في العالم الإسلامي بعد وصول نبأ سقوط القسطنطينية وانهالت التهاني على السلطان محمد الفاتح من كل البلاد الإسلامية. أما في أوربا فلقد كان سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين كالصدمة عليهم وأنتابهم الفزع وخشوا من سقوط باقي أوربا في أيدي العثمانيين. حيث تحولت فكرة أوربا من الهجوم على الشرق بالحملات الصليبية لانتزاع الأراضي المقدسة من المسلمين إلى الفكر الدفاعي الذي يهدف إلى إنقاذ أوربا الكاثوليكية من يد الدولة العثمانية المسلمة. (٢) فلقد أنهى فتح القسطنطينية وجود الإمبراطورية البيزنطية تماما وثبتت الدولة العثمانية أقدامها في أوربا وأصبحت من هذا الموقع الاستراتيجي الهام حاجزا مانعا للتقدم الروسي والنمساوي تجاه الشرق الإسلامي، بالإضافة إلى السيطرة على الطرق التجارية البرية والبحرية الهامة بين الشرق والغرب.

وعلى أثر ذلك مات البابا نيقولا الخامس كمدا ١٤٥٥م بعد محاولات مضنية لتوحيد الدويلات الإيطالية وحثها على قتال العثمانيين وتولى بعده البابا بيوس الثاني الذي حاول أيضا أن يوحد أوربا ولكن خططه باءت بالفشل.

أما محمد الفاتح فقد أستأنف ١٤٥٤م فتح بلاد الصرب ووصل إلى العاصمة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب. إلا أن هونياد القائد المجرى دافع عن المدينة باستماته شديدة فرفع محمد الفاتح الحصار عنها إلا أن هونياد كان قد أصيب إصابة بالغة مات على أثرها.

وفي العام ١٤٦٠م أتم محمد الفاتح فتح الصرب حيث أرسل محمود باشا الصدر الأعظم لذلك. وفي نفس العام تم فتح بلاد المرة وبلاد اليونان ودخل محمد الفاتح طرابزون دون قتال وضم بلاد الفلاخ إلى الدولة العثمانية. وفي عام ١٤٦٢م ضم محمد الفاتح بلاد البوسنة إلى الدولة العثمانية وذلك لامتناعها عن دفع الخراج. ثم أتجه بعد ذلك إلى فتح بلاد القرم وأستطاع فتحها بعدها توجه إلى بلاد البغدان التي كانت قد استعصت على جيشه فتحها في العام ١٤٧٥م إلا أن الجيش البغداني أستطاع هزيمة الجيش العثماني حيث حاربه داخل غابة كثيفة يجعلها الجيش العثماني. وفي العام ١٤٧٧م أتجه محمد الفاتح إلى بلاد البنادقة الذين خافوا على مدينتهم فعقدوا صلحا مع السلطان بموجبه تركوا له مدينة كرويا وأشقودره في مقابل بعض امتيازات تجارية. (٣)

أستكمل محمد الفاتح فتوحاته في أوربا تجاه الغرب ففتح بعض الجزر اليونانية ١٤٨٠م وسار بعدها إلى أوترانت بإيطاليا وفتحها عنوة وفزع الأوربيين لذلك وحاصر جزيرة رودس لمدة ثلاثة أشهر إلا أن العثمانيين تراجعوا لاستبسال الجزيرة في الدفاع والزود عن نفسها وللتحصينات الشديدة بها. (٤)

وفي عام ١٤٨١م/٨٨٦ه توفي السلطان محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية وطرابزون الرومية والصرب والبوسنة وألبانيا وجميع أقاليم أسيا الصغرى ولم يبق في البلقان إلا مدينة بلغراد التابعة للمجر. وبموته

(١) سير توماس وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، ط٣، القاهرة، ١٩٧٠م ص. ١٧٠

خلف الوذنياني: مرجع سابق ص. ١١٦/ -Halil Inalcik: The Ottoman empire P.57

(٢) محمد مصطفي صفوت: فتح القسطنطينية، مرجع سابق، ص. ١٣٨-١٣٩

(٣) محمد فريد بك: مصدر سابق، ص. ١٧٥

(٤) محمد فريد بك: نفس المصدر السابق، ص. ص. ١٧٤-١٧٦

أنقذت إيطاليا خاصة وأوربا بصفة عامة من الخطر العثماني وقد دفن [١] محمد الفاتح في إسطنبول. وقد كان خبر وفاته بشرى للبابوية التي دقت أجراس كافة الكنائس الأوربية لثلاثة أيام حيث وصلتها رسالة من إسطنبول تقول {مات النسر الكبير}. [٢]

بعد وفاة محمد الفاتح تولى عرش الدولة العثمانية ابنه الأكبر بايزيد الثاني (١٤٨١م – ١٥١١م) / (٨٨٦هـ -٩١٧هـ) وقد ثار عليه أخيه الأصغر جم أمير قرمان بعد ما علم بموت أبيه محمد الفاتح وأتجه قاصدا مدينة بورصة ودخلها عنوة بعد أن هزم الإنكشارية بها وقد أراد تقسيم المملكة بينه وبين أخيه بايزيد الثاني. فلم يقبل بايزيد بذلك وأصطدم به وهزمه بالقرب من مدينة يكي شهر. [٣] هذا وقد لجأ الأمير جم إلى المماليك في مصر وعاود الاشتباك مع أخيه إلا أنه هزم وفر إلى جزيرة رودس وبذلك سقط في يد أوربا التي لم تتردد في استخدامه كسلاح ضد العثمانيين. وقد أراد البابا في روما "إينوسان الثامن" استعمال جم لإعداد حرب صليبية على العثمانيين وعرض على جم اعتناق المسيحية وأن ينصبه ملكا على أوربا وقيادة كل ملوكها لاستعادة أملاك أجداده وقد رفض جم ذلك العرض تماما.

وبعد موت البابا إينوسان الثامن عرض البابا الجديد على بايزيد الثاني دفع مصاريف جم أو إرسال ٣٠٠ ألف ذهبية لقتله فوافق على الاقتراح الأخير وقد كان ملك فرنسا يريد استعادة جم من البابا الجديد للقيام بحملة صليبية والتوجه للقدس، ولكن موت جم أحبط المحاولة ١٤٩٥م. [٤]

وفي عهد بايزيد الثاني بدأت العلاقات السياسية مع بعض دول أوربا قبل عقد معاهدة ١٤٩٠م /٨٩٦هـ مع مملكة بولونيا، ولكنها لم تستمر طويلا بسبب ادعاء كل منهما ملكيته وسيادته على بلاد البغدان. فأغار ملك بولونيا عليها وقام العثمانيون بطرد المجر منها والغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير البغدان الذي قبل حماية السلطان العثماني. [٥]

وقد تميز عهد بايزيد الثاني ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوربا لكن جنوح السلطان الى السلم كامن مرتبطا بالتزام الأطراف الأخرى لهذا لم تمنعه الاتفاقات من قيامه بمنع أي تحرك ضده وذلك حينما استطاع الإيطاليون بعمل فتنة بين الدولة العثمانية والبندقية و ارسل السلطان العثماني جيوشه برا وبحرا لقمع تحركات البنادقة وهذا دفع البنادقة إلى الخوف من تقدم العثمانيين داخل أراضيهم فأرسلوا استغاثة إلى بابا روما الذي أرسل في نجدة البندقية، ولكن العثمانيين استطاعوا أن يستولوا على ميناء رودستو الواقع على بحر الأدرياتيك. لذلك طلب البنادقة عقد الصلح مع العثمانيين وكان السلطان بايزيد الثاني يستطيع ضم بلاد البنادقة إليه لولا عصيان أولاده عليه. لذلك عقد صلحا مع البندقية عام ١٥٠٢م /٩٠٧هـ، وفي السنة التالية عقد الصلح مع ملك المجر. [٦]

ولقد اضطربت الأحوال الداخلية للدولة العثمانية بسبب التنافس الشديد بين أبناء بايزيد وعصيانهم له مما أدى إلى اختلال الأمن في البلاد وازدياد الفتن حتى تمكن سليم الأول ابن بايزيد حاكم طرابزون من السيطرة على مقاليد الحكم بعد إجبار والده على التنازل عن العرش له ١٥١٢م.

(١) على حسون: تاريخ الدولة العثمانية. مرجع سابق، ص. ٤٠-٤١

(٢) يلماز أوزتونا: مصدر سابق، ج١ ص. ١٧٧

(٣) محمد فريد بك: مصدر سابق، هامش (١) ص. ١٨٠

(٤) سيد محمد السيد: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص. ٢١٩

(٥) على حسون: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص. ٤٢؛ محمد فريد بك: مصدر سابق، ص. ص. ١٨٣-١٨٤

(٦) محمد فريد بك: المصدر السابق ص. ١٨٥

بعد تولى سليم الأول (١٥١٢م-١٥٢٠م) (٩١٨ه -٩٢٦ه) كانت الدولة العثمانية أيامها خيارين مهمين وكان عليه الاختيار في أولوية الاستمرار في فتح أوربا أولا أو الاتجاه نحو الشرق والاصطدام بقوتين إسلاميتين هما الدولة الصفوية في فارس ودولة المماليك في الشام ومصر.

فأختار التوجه نحو الشرق لإيقاف تحرك الشيعة في الأناضول والعراق فتوجه لمحاربة الصفويين وهزم الشاه اسماعيل في موقعة جالديران ٩٢٠ه /١٥١٤م ودخل تبريز قاعدة الدولة الصفوية، ولكنة أضطر إلى الرجوع إلى بلادة لتنظيم صفوف جيشه مما مكن الشاة إلى العودة مرة أخرى وظلوا في عداء دائم، ولكن الدولة العثمانية عملت على تحجيم نفوذ الفرس في العراق وتركستان.

أما المماليك فلقد أتضح لسليم الأول أنهم كانوا يساندون الصفويين ضد العثمانيين. [١] فالمماليك قطعوا خطوط المواصلات المتجهة لأعداء الجيش العثماني أثناء حربهم مع الصفويين رغم إعلانهم الحياد التام وهذا العمل أغضب سليم وقرر مواجهة المماليك في الشام فأستعد له قنصوة الغوري عند حلب والتقى الجيشان عند مرج دابق ١٥١٦م /٩٢٢ه وبعد قتال شديد هزم العثمانيين المماليك وقتل قنصوة الغوري في المعركة ودخل سليم الأول حلب وضم الأراضي السورية لممتلكات العثمانيين. [٢]

قام المماليك بتجميع قواتهم في مصر وعينوا طومان باي نائب الغيبة حاكما على مصر. وقد عرض سليم الأول على طومان باي الصلح مقابل الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية على مصر فرفض طومان باي وعليه أتجه سليم الأول بقواته إلى مصر وألتقي الجيشان العثماني والمملوكي في الريدانية ١٥١٧م /٩٢٣ه وأنهزم المماليك وبتلك المعركة انتهت دولة المماليك تماما وتم ضم مصر إلى أملاك الدولة العثمانية. وتبع ذلك ضم الحجاز الى الدولة العثمانية حيث قدم شريف مكة إلى مصر وقدم الطاعة إلى سليم الأول وأطلق عليه لقب حامى الحرمين الشريفين وخليفة الإسلام. وهكذا أصبحت أملاك المماليك في سوريا وفلسطين والحجاز واليمن ومصر تحت سلطة الدولة العثمانية وتلك البلاد هي مراكز دينية وسياسية وحضارية مهمة للدولة الإسلامية وأضافت للدولة العثمانية ثقلا حضاريا وبهذا أصبحت الزعامة الإسلامية جميعها تحت سلطة العثمانيين. [٣]

ومنذ ذلك التاريخ حملت الدولة العثمانية أمانة ومسئولية الحفاظ على راية الإسلام والمسلمين والدفاع عنهم ورفعة شأن كل البلاد الإسلامية التي تحت سلطتها. حيث أصبحت هي القوة الإسلامية الوحيدة.

ويقول المولى عز وجل في كتابه الكريم في سورة أل عمران أية (٢٦)

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

كما قال تعالى: (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران: ١٤٠].

---

(١) أحمد جودت باشا: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، ج١، مطبعة جريدة بيروت، بيروت ١٣٠٨هـ، ص.٤٣

(٢) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الآمة العربية، معهد الدراسات العربية جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦١م، ص. ١٢٥

(٣) على حسون: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص. ٥٨؛ أحمد جودت باشا: مرجع سابق ص. ٤٣؛ سيد محمد السيد محمود: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص. ص. ٢٤٦-٢٤٧

وأثناء حكم سليم الأول كانت هناك محاولة أوربية صليبية لمحاربة العثمانيين في العام ١٥١٥م قام بها البابا لاون العاشر الذي أرسل إلى الإمبراطور مكسميليان وملك إنجلترا وملك بولونيا والدون بازيل المسكوبى. (١) وقد كتب إلى ملك البرتغال يدعوه إلى هذه الحرب مع سائر ملوك المسيحيين. وعندما أفتتح سليم الأول الشام ومصر وازدادت السلطنة العثمانية كتب البابا إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا يقول له " أما لهذا الليل من أخر".

ولقد أنتدب البابا لجنة خاصة رسمت خطة حربية لقتال العثمانيين وأستمر البابا في محاولة توحيد القوى الأوربية المسيحية لتجهيز الجيوش إلا أن جميع هذه التدابير لم يعد له جدوى حينئذ بسبب وفاة الإمبراطور مكسميليان عام ١٥١٩م وتوقف مشروع هذه الحملة الصليبية. (٢)

وفي نهاية عهد سليم الأول أصبحت الدولة العثمانية تسيطر على طريق التجارة القديم الذي يمر بمصر عبر البحر الأحمر والبحر المتوسط إلى أوربا، وقامت بتجديد المعاهدات التجارية مع البندقية التي تسمح لها بالمرور والتجارة في الأراضي التي كانت خاضعة للمماليك، وأصبحت الدولة العثمانية هي التي تتصدى لاعتداءات البرتغال في الجنوب لتنشيط حركة التجارة في الطريق القديم من جديد. (٣)

انتابت أوربا الشعور بالفرح عندما وصلهم خبر وفاة سليم الأول ١٥٢٠م فشعروا أن الخطر الذي كان يهددهم قد زال وحينما تولى سليمان الأول بن سليم الأول ظنوا فيه رجلا هادئا مسالم لا يميل إلى الحرب إلا نادرا. (٤) فتبدد شعور الأوربيين وتغير موقفهم عندما أرسل سليمان الأول رسول لجمع الجزية من أهل المجر الذين امتنعوا عن دفعها وتمردوا وقتلوا رسول السلطان. فأضطر سليمان الأول أن يرسل حملة لمحاصرة مدينة سابتس القريبة من بلغراد بقيادة أحمد باشا وفتحها عنوة ثم أنطلق بعد ذلك إلى بلغراد عاصمة الصرب وفتحها عنوة بعد حصار شديد وكانت مدينة حصينة على أسلافه من قبل. وحظيت بلغراد بأهمية كبيرة للعثمانيين وأصبحت قاعدة انطلقوا منها إلى ما وراء نهر الدانوب أو لوسط أوربا. وبعد هذا الانتصار عاد سليمان الأول إلى إسطنبول وقد أرسل إليه قيصر روسيا سفيرا يهنئه وكذلك رؤساء جمهوريتي البندقية وراجوزة وأصبحوا يتقربون إليه خوفا من غاراته على بلادهم. (٥)

أتجه بعد ذلك سليمان الأول لفتح رودس التي ظلت منيعة على العثمانيين حيث أتخذها فرسان القديس يوحنا مملكة لهم بعد أن طردهم المسلمون من فلسطين إبان الحروب الصليبية فكانوا يقومون بشن حروب على المسلمين من رودس. وقد استعد سليمان لفتح الجزيرة برا وبحرا لأنها كانت نقطة أتصال بين إسطنبول ومصر وسوريا والحرمين الشريفين. (٦) وبعد أربعة أشهر من الحصار استسلمت الجزيرة للسلطان سليمان الأول بشروط منها صون الكنائس وإقامة الشعائر الدينية الخاصة بهم وعدم فرض

---

(١) يقصد بها دوق موسكو أو أمير موسكو . الأمير شكيب أرسلان: مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ١٢٨١م-١٩١٣م، تقديم محمد العبدة. ط١، دار بن حزم، بيروت ١٩٩٥م، ص. ٥٥

(٢) الأمير شكيب أرسلان: المرجع السابق. ص. ٥٦

(٣) سيد محمد السيد محمود: تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص. ٢٤٦-٢٤٧

)4(V.J Parry: a history of the ottoman empire to 1730 /P. (95)

(٥) محمد فريد بك: مصدر سابق. ص. ص. ١٩٩-٢٠٢

(٦) محمد فريد بك: نفس المصدر السابق ص. ٢٠٣

ضرائب لمدة خمس سنوات وقبل السلطان الشروط وبذلك أمن أملاكه وتحركاته في شرق البحر المتوسط. (١)

كان فرانسوا الأول ملك فرنسا على علاقة خصومة وعداء مع شارل الخامس ملك النمسا الذي كان ملكا على أسبانيا وهولندا وألمانيا وجزء من المدن الإيطالية. (٢) وجد فرانسوا الأول في سليمان الأول حليفا مهاب الجانب فأرسل إلى سليمان يطلب منه الهجوم على ملك المجر أحد حلفاء شارل الخامس ملك النمسا حيث كان يأمل فرانسوا الأول من ذلك تقليل الضغط الهابسبرجى الذي يحاصر أبواب مملكته نفسها بعد هزيمته في بافيا ١٥٢٥م. وقد قبل سليمان طلب فرانسوا لإنه كان يريد السيطرة على مملكة المجر. (٣) وبالفعل جهز سليمان جيشا كبيرا قوامه ١٠٠ ألف جندي وواصل السير حتى قلعة بلغراد ومنها أنطلق حتى وصل إلى وادي موهاكس. (٤)

وفي العام ١٥٢٦م تقابل الجيشان وأنتصر الجيش العثماني وقتل ملك المجر وسقطت بودا (٥) عاصمة المجر في يد العثمانيين. وقد صرح فرانسوا الأول ملك فرنسا للسفير البندقى جورجيو جريتى أنه يعتبر الدولة العثمانية القوة الوحيدة لحماية الدول الأوربية ضد توسع شارل الخامس. وهذا ما يوضح كيف كان ينظر الأوربيون للسلطان سليمان الأول في تلك الفترة.

عين سليمان الأول المجرى يانوس زابوليا ملكا جديدا على المجر مع إبقائها تحت السيادة العثمانية إلا أن فرديناند شقيق شارل الخامس أرشيدوق الهابسبرج للنمسا طالب بالعرش المجرى لنفسه ولم يعترف بسلطة يانوس زابوليا عليها وقام بالاستيلاء على بودا وقام بنفي يانوس وأعلن نفسه ملكا للمجر فما كان من سليمان الأول إلا أن عاد بنفسه ١٥٢٩م وأستولي على بودا وهرب فرديناند وعاد يانوس ملكا على المجر مرة أخرى ووافق على دفع الجزية للعثمانيين وأحتفظ سليمان بموقع للقوات الإنكشارية في المجر. ولقد عاود فرديناند الهجوم على بودا مجددا مما جعل سليمان يتعقبه حيث توغل في عمق النمسا وأوربا الوسطى مما أضطر فرديناند على طلب الصلح فوافق سليمان عليها وذلك ليتفرغ لمواجهة التهديد الصفوي في الشرق وعقد عرض السلام ١٥٣٣م الذي فيه أعترف فرديناند بتفوق سليمان الأول عليه كما أعترف أيضا بيانوس ملكا على المجر ووعد بدفع ٣٠ ألف قطعة ذهبية سنويا للعثمانيين. (٦)

وقد انتهزت القوى الصليبية في أوربا انشغال سليمان الأول (القانوني) بالحروب البرية داخل أوربا فهاجموا المدن العثمانية بحرا بقيادة الأدميرال أندريا دوريا تابعا لشارل الخامس واحتلوا كورون وباتراس التابعة لبلاد المورة. ولهذا قام سليمان بتعين خير الدين بارباروس باشا قائدا عاما للبحرية العثمانية. وقد توقع ملك النمسا رد الفعل العثماني فأرسل لسليمان الأول يطلب منه الصلح فقبل منه ذلك بشرط تسليم مدينة جران وعودة كورون للدولة العثمانية وأن الاتفاقات بين النمسا وزابوليا ملك المجر لا

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفي: في أصول التاريخ العثماني، مرجع سابق، ص. ٨٩

(٢) محمد فريد بك: مصدر سابق ص. ص. ٢٠٨-٢٠٩

)3(V.J Parry: a history of the ottoman empire to 1730 /P. (81)

(٤) Mohacs تقع اليوم في جنوب بلاد المجر بالقرب من الحدود اليوغسلافية. محمد فريد بك: مصدر سابق. حاشية (٢) ص. ٢١١

(٥) بودا : هي الجزء الغربي من بودابست وتقع على الضفة الغربية لنهر الدانوب. صالح كولن: سلاطين الدولة العثمانية. ترجمة منى جمال الدين، ط١، دار النيل، القاهرة ٢٠١٤م، ص. ١٠٥

(٦) صالح كولن: المرجع السابق، ص. ١٠٧

تتم إلا بموافقة السلطان العثماني. وهذه هي أول معاهدة صلح بين النمسا والدولة العثمانية وقع الطرفان عليها. (١)

وأستطاع السلطان سليمان أن يعزز من مكانة الدولة العثمانية في البحر الأحمر وفتح عدن واليمن وأتخذها قاعدة بحرية لمواجهة البرتغاليين الذين أتخذوا من مضيق هرمز قاعدة لهم في الخليج العربي تمكنهم من تهديد المقدسات الإسلامية في الحجاز إلا أن الدولة العثمانية استطاعت وقف ذلك التهديد البرتغالي. (٢) كما وطد سليمان القانوني من وضع الدولة العثمانية في شمال أفريقيا عندما طرد الأسبان من طرابلس الغرب وهزم البابا وإمبراطور ألمانيا ودوقية البندقية في ١٥٣٨م في معركة بحرية قادها القبطان بربروسا في البحر المتوسط.

وأثناء انشغال السلطان سليمان القانوني بالقتال في أوربا أخذ الصفويون يهاجمون العثمانيين. فقام سليمان بحملة عسكرية على الصفويين ١٥٤٨م استمرت سبعة سنوات وانتهت بتوقيع معاهدة عام ١٥٥٥م في أماسيا بين السلطان سليمان والشاة طهماسب وفيها يحتفظ العثمانيون بشرق الأناضول وأذربيجان وتبريز بما في ذلك بغداد مما سهل عليهم الوصول إلى الخليج العربي. (٣)

اعترفت أوربا بالسيادة العثمانية على غرب البحر المتوسط بعد أن فتح العثمانيين جربة ١٥٦٠م بعد هزيمة ساحقة للأسطول الصليبي وبذلك عززت الدولة العثمانية من وجودها في شمال أفريقيا.

وعندما توفي ملك النمسا فرديناند ١٥٦٤م خلفه ابنه مكسميليان. فأراد سليمان أن يستعيد ما تم سلبه من المجر إمارة ترانسيلفانيا (Transylvania) وبينما هو في طريقه إلى قلعة أرلو من أعمال النمسا. بلغه أن أمير إسكدوار غار على جيشه فتوجه السلطان إلى تلك المدينة وحاصرها وأحتلها بعد أسبوعين رغم أن السلطان سليمان توفي أثناء حصارها ١٥٦٦م إلا أن قائد الجيش أخفي ذلك وأرسل إلى ابنه سليم الثاني الذي حضر وأستلم مكان أبيه حتى لا تحدث قلاقل.

وبنهاية عصر السلطان سليمان الأول كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى أوج عظمتها من القوة والنفوذ في قارات أسيا وأوربا وأفريقيا وبلغت إجمالي مساحتها ١٤,٨٩٣,٠٠٠ كم^{٢}. (٤)

(١) محمد فريد بك: مصدر سابق، ص. ٢١٩

(٢) محمد عبد اللطيف هريدي: الحروب العثمانية الفارسية، ط١، دار الصحوة للنشر، القاهرة ١٩٨٧م، ص. ١٣

(٣) صالح كولن: مرجع سابق ص. ١١٠؛ أحمد عبد الرحيم مصطفي: في أصول التاريخ العثماني، مرجع سابق، ص.٩١

(٤) يلماز أوزتونا: مصدر سابق، ج١، ص. ٤٣١

Political and military relations between Europe and the Ottoman Empire in the era of the great sultans

By

Hani Hamed Mahmoud Seif El-Din Madkour

Prof. Ibrahim Ali Abdel Aal

Professor of Contemporary History, Faculty of Arts - Tanta University

Dr.. Ibrahim Fouad Abdel Aziz

Lecturer of Modern History, Faculty of Arts - Tanta University

Abstract

The European relations with the Ottoman Empire at the beginning of its inception was not a concern for Europe, as it was a small principality located on the borders of the Byzantine Empire. Until the strategy of the sultans of the Ottoman Empire, since its first founder, Othman bin Artugrul, began to move towards expansion, and from here Byzantium noticed the danger coming from that emirate. But the Ottomans managed to seize the cities of the Byzantine Empire in Anatolia. The Ottoman victories had a great echo in Western Europe, which feared the expansion of the Ottoman Empire.

Until the decisive moment came to end the Byzantine Empire when the Ottomans conquered Constantinople at the hands of Sultan Mehmed II (the Conqueror) and the Ottomans established their feet in Europe. Here, Europe's strategy shifted from attacking the East to occupying it and seizing its wealth to defending with the aim of saving the rest of Europe and preserving its lands from falling into the hands of the Ottomans. The Ottoman presence in Eastern Europe became a barrier to any European or Russian progress towards the Islamic East.

The Ottoman Empire expanded and reached the height of its power and influence during the reign of Sultan Suleiman the Magnificent, as it reached its borders to the walls of Vienna, a group that strengthened its presence in North Africa, and its area in the three ancient continents of the world may reach 14,893,000 km2. Even after the death of Suleiman the Magnificent, the Ottoman Empire was the only superpower in the world and the final say in any treaties and agreements that occurred between it and the European countries.

Key words: Political relations, military relations, Europe, the Ottoman Empire, the great sultans